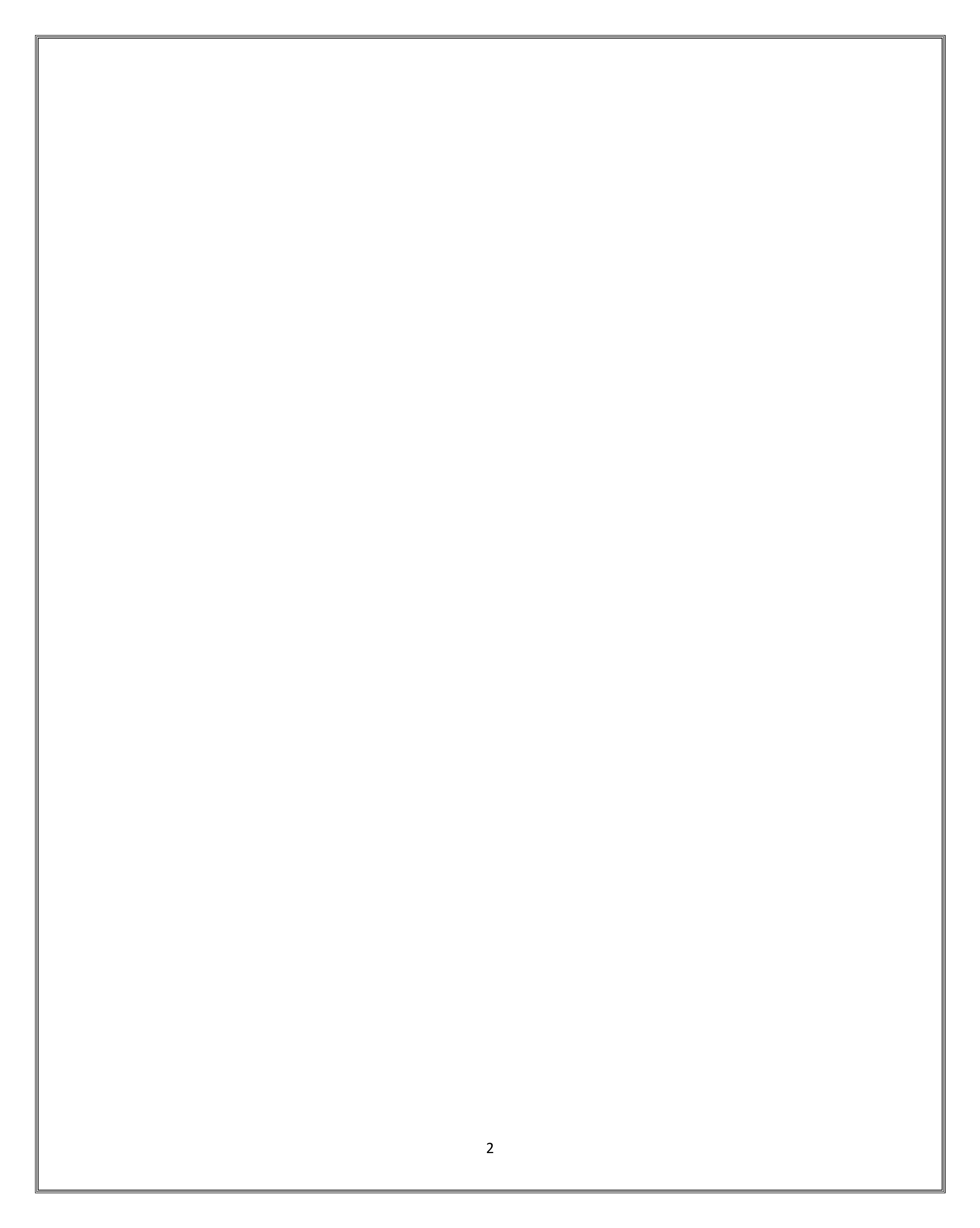
تجديد الخطاب الديني

محاضرة للأستاذ:

الشّريف سيدي محمد العيد التّجاني

حفيد المقدَّم البركة سيدي العيد بن سيدي بن سالم

البيّاضة / ولاية الوادي /



تجديد الخطاب الديني

مقدمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله تتنزّل الخيرات والبركات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيد المرسلين سيدنا محمد النبي الأمين القائل في ما صحّ عنه { **إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة مَن يُجدد لها دينها** } ورضي الله عن سيدي أبي العباس طيّب الأنفاس مولانا أحمد بن محمد التجاني القائل فيما ثبت نقله عنه: { **بسير زمانك سرْ** } أمّا بعد:

فقد كثر الحديث عن تجديد الخطاب الديني وضرورة تنويره، وذلك من منطلق ملاءمة الخطاب الديني للعصر الحالي، الذي يشهد حالة من حالات الحراك الديني والسياسي والاجتماعي، ويرجع سبب طرح هذا الموضوع على مستوى الساحة الفكرية إلى التهديد الخارجي الذي يُحاك بالأمّة الإسلامية جمعاء من خلال دسّ بعض الأفكار والتصورات تحت عنوان التجديد والتطوير والتنوير في الخطاب الديني، بالإضافة إلى قصور الخطاب نفسه عن المستوى المنشود في إيصال الرسالة وتبليغها على الوجه المَرضي عنه، ومن هنا نجد أنفسنا نَتساءل عبر إشكالية هذه الورقة البحثية حيث نقول:

ما هو المنهج السليم لبناء الخطاب الديني، أسلوبا، ومضمونا لمعالجة تحديات العصر؟ وإلى أيّ مدى يمكن تجديده وفق الضوابط المنشُودة؟

تمهيد: مما لا شك فيه أن التجديد سنة في الأمة الإسلامية وبشارة نبوية، بيد أن هذه السنة تحتاج إلى ضوابط تضمن لها أصالتها وتعمل على مواكبة الحياة العصرية. لقد كان لمفكري الإسلام في عصر الانفتاح اتجاهات ورؤى أمام الثقافات الأخرى بين الإفراط والتفريط، فجاءت هذه الورقة البحثية لتبين مرونة العقيدة والفكر الإسلامي في قضية التجديد والانفتاح ،مع التمسك بأصالة الإسلام من خلال مصدريه الكتاب والسنة الصحيحة، مع بيان مواضع وحرية الفكر

المنضبط الذي يفسح المجال للفكر الإسلامي ليعمل بكل سعة بحيث يضمن له عدم الانحراف.

إن الجمع بين الثبات والمرونة والتجديد والانفتاح أمر ليس بالسهل، لذلك كان لزاما تبيين الخطوط الدقيقة التي تضبط الفكر الإسلامي، وتبين أنه مرن صالح لمواكبة الحاضر دون الانصهار في بوتقة العَلمنة.

إن الربط بين الثبات والمرونة من جهة، وبين التجديد والانفتاح من جهة أخرى، يُعد تأسيسا لموضوع ضوابط التجديد والانفتاح، بما يضمن عدم الجمود مع الارتباط بحقيقة الأصالة ،ولا بأس أن نبدأ بذكر مفهوم للتجديد في الخطاب الديني.

المطلب الأول: مفهوم التجديد في الخطاب الديني وضوابطه:

أولا : مفهومه: المقصود بتجديد الخطاب الديني هو فهم الداعية للأدلة فهماً جيداً صحيحاً حتى يوصلها إلى الناس ويخاطبهم على قدر عقولهم مراعياً لمقتضى حالهم وأن يساير العصر في تطوره وأن يوظف ما يملكه في خدمة دعوته حتى يكون خطابه مُرتبطا بالأصل مُتصلا بالعصر ، مُنفتحا على الاجتهاد والتغيير ، مُستلهما للماضي، مُعايشا للحاضر، مُستشرفا للمستقبل.

ثانيا: ميدان التجديد وضوابطه:

1/ ميدانه: فكما هو متقرر أنّ الإسلام نظام ربّاني شامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فهو الحق المطلق والصواب الدائم، ولذا كان من الواجب أن نؤكد أن ميدان التجديد الحقيقي هو في الأمة ذاتها؛ بحيث تُجَدد همتها ونشاطها ووسائلها، وتعالج أمراضها ومشكلاتها، وتحسن مواجهة تحدياتها، وتبني قوتها؛ لتقومَ بأداء حق الله في الوجود على أكمل وجه، وهذا يمكن أن يكون في القضايا المتغيرة، والمسائل القائمة على الاجتهاد ابتداءً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإن العقائد وأصول الأخلاق وأصول العبادات، وكل ما هو غيبي أو استند إلى دليل الوحي القطعي لا يمكن أن يتصور الاجتهاد فيه ولا التجديد، أما التجديد في

الوسائل فهذا أمر مسلم لا يناقش فيه أحد ،أما الذي عناه الغرب من فكرة **تطوير الخطاب الديني**، إنما هو تغيير وتبديل وتحريف في جوهر الإسلام، لأن الغرب يرى أن الإسلام يحمل مفاهيماً متميزة ،وخطابه يقوم على التمايز وعدم الاندماج والتمييع، وهو يحمل وجهة نظر خاصة، ويطرح نظاماً بديلا لكل الأنظمة الوضعية، وبذلك فهو يشكل تهديدا صريحا لمصالح الغرب، ولذا تعالت أصوات الساسة الغربيين بضرورة تطوير الخطاب الديني عبر صياغة جديدة ترضي آمال الغرب ولذا وجب أن نشير إلى بعض ضوابط التجديد.

والطريقة التجانية كغيرها من الطرق السنّية الزكية لم تأت لتنقض حكما واحدا انعقد أصله وثبت بالشريعة الواضحة، ومن هنا ينبغي فهم قول سيدنا الشيخ رضي الله عنه { بسير زمانك سر } في إطار المتغير من الشريعة من الساحة المرنة فتُفهم هذه المقولة في ضوء قوله رضي الله عنه :{ إنّ الحكم المقرر في الشرائع من الرسل عليهم الصلاة والسلام لا ينحل عقدة إلاّ بنبوة و أمّا الولاية فليس في وسعها ذلك } جواهر المعاني 247/1.

وقال أيضا :{ إنّ التشريع بإحداث حكم لم يكن سابقا طلبا للفعل أو طلبا للترك أو تعبدا أو إباحة أو نقض حكم سابق في الشريعة فتبدل بحكم آخر فهذا لا سبيل للأولياء إليه ؛إذ هذا متوقف على النبوّة فقط } جواهر المعاني 116/2.

2/ ضوابط في التجديد:

و لئلا يتحول التجديد إلى عبث بالدين، وتفلت من أحكامه، ومسايرة لطروحات الخصوم، أو خضوع إلى واقع مريض، أو استجابة لمطالبات غير مشروعة كان لابد من بعض الضوابط الأساسية في ذلك، ومنها:

(أ) ضرورة المرجعية الصحيحة .

قال تعالى: { وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ } {آل عمران:07 }.

والمرجعية يمثلها العلماء الربّانيون الذين غُذّوا بأسرار الوحيين الشريفين فهم الذين يوقعون بالنيابة عن ربّ العالمين في فتاواهم ومختلف شؤونهم، ولما كانت المدرسة الروحية التجانية شديدة الارتباط بهذه العروة الوثقى كان مؤسسها وشيخها الأوحد رضي الله عنه شديد التمسّك بالكتاب والسنة بل وشديد الحثّ على الرجوع والردّ إليهما كما قال **سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه في جواهر المعاني:**

: { ولنا قاعدة واحدة تنبني عليها كل الأصول؛ أنه لا حكم إلا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم, ولا عبرة في الحكم إلا بقول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم, وأن أقاويل العلماء كلها باطلة إلا ما كان مستنِدا لقول الله أو قول رسوله صلى الله عليه وسلم, وكل قول لعالم لا مستند له من القرآن ولا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو باطل, وكل قولة لعالم جاءت مخالفة لصريح القرآن المحكم ولصريح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فحرام الفتوى بها } .

وبيّن أنّ طريقته طريقة العلم والعلماء في إشارة علوية ربّانية يفهمها مَن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد حين قال : { إذا سمعتم عنّي شيئا فَــزِنــــــُوه بميزان الشرع فإن وافق فأعملوا به، وإن خالف فاتركوه } فمَن الذي سيزن؟ وما هو الموزون؟

فقد قرر علماء الطريق أنّ هذا فيه حثٌّ على ضرورة تكوين الفرد التجاني وربطه بالعلم الشرعي حتّى لا يكون تكوينه نابعا من فوضى الأفكار العامّة التي لا ترتبط بأصل ثابت وإنّما ترتبط عادة بالدعاوى والمزايدات، التي غالبا ما تكون سببًا في عدم الانفتاح وتقبل الآخر بل نبذه والتعالي عليه.

(ب) الإخلاص والصدق مع الله في الظاهر والباطن: فينبغي أن يُربط الخطاب بالإصلاح فلا تجديد إلا بالإصلاح والإصلاح لابد أن يسبقه ويتقدّمه صلاح على مستوى النفوس و المفاهيم والتصورات وعلى مستوى الممارسة والسلوك في بناء الإنسان، حتّى يكون الخطاب نابعا من قلوب تحققّت بالارتباط بالحق جلّ

جلاله، مخلصة في العمل لوجه الله كما قال سيدنا الشيخ رضي الله عنه :{ واعلم أنّ الذي حجب الخلق عن الله تعالى هو سكونهم إلى غيره }.

فإن هذا يعني أنَّ على مَن يقوم بعملية التجديد أن يحاسب نفسه وأن يصفّي قلبه لله وأن يتجرّد للحق في كل ما يصبو إليه.

(ج) أن يكون التجديد في الفروع الاجتهادية، وفي المتغيرات من الشريعة والطريقة لا في الثوابت والقطعيات: فلا يُتصور أن يكون التجديد في الأصول ولا العقائد ولا الغيبيات، ولا أصول العبادات ولا أصول الأخلاق والتزكية .

فما أجمعت الأمّة على حرمته لا يُجوّز اليوم تحت اسم التجديد والتطور، كالدعوة للاختلاط والسفور تحت مسمى حرية المرأة، والدعوة إلى القول بنجاة الكفار من المشركين وإن لم يعتنقوا الإسلام تحت مسمّى التعايش الإنساني، ولما كانت الطريقة التجانية مدرسة للتربية الروحية أخذت من الشريعة الحظ الوافر في المشاكلة في هذا الميدان فهي كذلك فيها أصول ثابتة لا تتزحزح فإذا أردنا تجديد الخطاب الديني فيها فلابد من تقرير هذه الأصول.

الأصل الأول: صرف الوجهة في استمداد التربية الى سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلّم: وهذا أمر مُقَرر في كتب الطريقة كما قال بخاري الطريقة سيدي محمد العربي في البغية: { وصاحب هذه الطريقة رضي الله عنه و أرضاه أسكن ذرّيته وعياله، الذين هم أهل طريقته عند بيت الله المحرّم الذي لا يضيع من آوى إليه ولا يخيب من عرج في قصده عليه وهو سيد الوجود وعلم الشهود صلى الله عليه وسلم لأنّه صلى الله عليه وسلّم : **أستاذهم، ومربّيهم، والضامن لهم، وكفيلهم، ومتولّيهم،** وفي ذلك إشارة إلى تربيتهم بِقَصر النظر في استمداداتهم واستنداداتهم عليه، وصرف الوجهة في سائر تقلّباتهم إليه، ونِعْم التربية هذه، لأنّه صلى الله عليه وسلّم باب الله الأعظم الذي مَن صُدّ عنه لا يجد بابا يدخل منه، والوسيلة العظمى التي من تخلّف عنها لا يجد سببا يتعلّق به } انتهى.

الأصل الثاني: أنّ كلّ مَن صحت نسبته إلى هذه الطريقة برِيء كل البراءة من الدعوة الى النفس: وإنّما علامة القبول هي الدعوة الى الله وقَصْر الوجهة الى سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلّم وقد كان شيخنا المؤسس رضي الله عنه يفرّ من الدعوى أتمّ الفرار

قال سيدي الحاج علي حرازم واصفا الشيخ التجاني رضي الله عن الجميع :{ ويتبرّأ من الدعوى أتمّ البراءة ويتنصّل منها غاية التنصّل ولا يقبل من أحد فعل ذلك، وقد نجح والحمد لله على ذلك وسرى للأصحاب ما هنالك، لا يحبّون الدعوى ولا من يشتغل بها لما يعلمون من حاله، ويسمعون من مقاله ويرون من فراره منها وممّن هي فيه، لأن الدعوى أشدّ بلاء من البلوى وكثيرا ما نراه يستعيذ بالله منها ويقول: { إنّ عقوبتها الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى }.

كما قال صاحب المنية:

ومهما ترى من الخوارق * على يَدَي هذا الإمام الفائق

يخفي الخوارق خفاء غاية * ويبغض المدّعي للولاية

وكان ينهى الناس عن دعواها * مخافة السقوط في بلواها

بل كان سيدنا الشيخ رضي الله عنه يكتب في جلّ رسائله العبارة المشهورة: { وكَتبه إليك محبّك العبد الفقير أحمد بن محمد التجاني الحسني خادم الطريقة المحمّدية وخديم فقرائها }.

لذلك نَقل سيدي محمد العربي في البغية في الوعيد المصاحب لمن يتساهل في إطلاق الألفاظ داخل هذه الطريقة المحمّدية، ما يحتاج الى وقفة صادقة وتأمّل عظيم، قال رضي الله عنه: { ومن نسب أحدا للقطبانية بغير نقل وعلم صحيح بل بمجرّد رأيه وهواه فقد وقع في هفوة عظيمة يُخشى عليه أن يموت كافرا }.

الأصل الثالث: عدم إخراج هذه الطريقة المحمّدية عن وظيفتها الكبرى:

وإنّ من الثابت – أيضا- والقطعي أنّ هذه الطريقة التجانية المحمدية ما جاءت أصالة إلاّ لتسليك العباد وربطهم بالحق جلّ جلاله ، فالتجديد قد يكون في أساليبها مع الحفاظ على هدفها الأعظم وهو السلوك والسير إلى الله عزّ وجلّ فمن غير المعقول أن يُدخل فيها من الأفكار والتصورات ما ليس منها بل ولا يتماشى مع أصولها، وقد كان همّ الرجال الأكابر في هذا الطريق حثّ النّاس على أخلاق التصوف والتزكية من الزهد والورع والصدق مع الله في الخلوة والجلوة فهذا مولانا سيدي الحاج علي التماسيني يقول: { والمؤكّد عليكم يا أحبابنا وتلامذة سيدنا أن توبوا لله واتركوا القيل والقال ، واتركوا كلام العوام فإنّها تطفئ نور القلب }.

وهذا سيدنا الشيخ رضي الله عنه يحدوا النّاس للارتباط بخالقهم فيقول :{ فليس لك إلاّ الله سبحانه وتعالى، فلا تشتغل عنه بغيره، ولا تجعل لنفسك إلى سواه منتجعا، ولا إلى الإعراض عن بابه تعللا، ولا عن الانحياش إليه في الشدائد والمضائق والكروب ملجئا، ولا في الرخاء وتواتر النعم عن مراعاة شكره مصرفا }.

(د) أن يكون التجديد قائماً على الدليل الصحيح: أمَّا أن يكون مجرد ادعاءات وتمويهات وإطلاقات - لا تستند إلى مصادرها؛ أو أن يكون معوّلا فيه على الفلسفات الغربية التي قد يستفاد منها لكن بعد الاهتمام بالأصل وتحقيقه ،فهذا لا ينبغي، والدليل إذا كان صحيحا فإنّه لا يتعارض مع مصادر التشريع الكبرى حتى ولو كان الدليل كشفا أو إلهاما يقول في ذلك إمامنا التجاني قدّس الله سره: { اعلم أنّ النصّ الصريح لا يختلف مع الكشف الصحيح لا مادة ولا نهاية فكلاهما واحد من عين واحدة }.

المطلب الثاني: آليات تجديد الخطاب الديني:

لا شكّ أنّ الأمة الإسلامية عامّة والمدرسة الروحية التي ننتمي إليها خاصّة أصبحت تحتاج إلى خطاب ديني معاصر يحل مشاكلها ويواجه تحدّياتها وواقعها ويبين موقفها وحضارتها الإسلامية انطلاقا من فكر ديني يجعل من النقل والعقل

وسيلة لتحصيل الإيمان الصحيح، دون أن يتعارض مع التقدّم العلمي والتكنولوجي الحاصل في العالم خاصة في مجال الإعلاميات والسباق نحو التصنع والتحضر، ومن هنا نذكر بعض الآليات التي من شأنها أن تعين على تجديد الخطاب الديني :

1/ تكوين هيئة علمية من رجال الفكر والدعوة المشهود لهم بالعلم والجدية داخل هذه الطريقة المباركة، لتضع خططا وبرامجا علمية شاملة لتطوير الخطاب الإسلامي بكل مستوياته وصوره وأساليبه، بما يمكنه من مواجهة الحاضر والمستقبل، مواجهة واعية ممكنة، ويتم هذا أولا بإجراء مسح شامل للطاقات القادرة والجادة، وثانيا بتوحيد جهود كل المؤسسات العلمية والدعوية الرسمية وغير الرسمية .

2/ استحداث إعلام يجدد الخطاب الديني ويرقى به إلى معالجة القضايا الهامة الحياتية للمسلمين عامة والتجانيين خاصة في النوازل والمستجدات، وإتاحة الفرص الكافية للعلماء والمفكرين المعتدلين لتقديم الإسلام الصحيح، ومنهج التزكية الصحيح المنوط بالمرجعية والقدوة الكبرى.

3/ تخصيص دفعات من شبابنا التجاني والزج بهم نحو التكوين الديني في الجامعات الإسلامية المعتمدة: كالأزهر الشريف، ومحاظر شنقيط، والجامعات الإسلامية الكبرى حتى يرتقي الخطاب ويتنوع ممّا يشكّل زخما وثراءً نافعا.

4/ التأكيد على مبدأ الوسطية والاعتدال كما يراه الإسلام - وذلك من خلال البرامج والأنشطة الثقافية والاجتماعية ومن خلال الخطب الجمعية والدروس وعقد الملتقيات والندوات.

خاتمة

وفي الأخير نخلص إلى أنّ تجديد الخطاب الديني معناه: إزالة كلّ ما علق بهذا الشرع والطريقة من مفاهيم مغلوطة، أو تأويلات منحرفة، وإعادة إبراز مكارم الشريعة وسموا أخلاقها ورصانة علومها، عن طريق تفعيل مناهج الاستنباط

المنضبطة الرصينة، حتى يرجع جوهر هذا الدين نقيا ساطعا يرى الناس فيه الهدى والسكينة والعلوم والمعارف والحضارة، قال الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة: " إنّما التجديد هو أن يعاد إلى الدين رونقه، ويزال عنه ما علق به من أوهام، ويبيّن للنّاس صافيا كجوهره، نقيّا كأصله".

نختم بأنّ التجديد الذي ننشده وتنشدونه هو سنة من سنن الله في الخلق و يكون وفق السنن الإلهية الربّانية التي لا تحابي أحدا مَن راعاها رعته ومَن ضيّعها ضيعته ومَن حفظها حفظته، فهو تجديد وفق فقه الممكن والمقدور والمستطاع والمتاح كما قال خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام { **إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت** } ، واعلموا رحمكم الله أنّ من لم يتجدد يتبدد ومَن لم يتقدّم يتقادم ومَن لم يتطور يتدهور فتلك سنة الحياة والماء الراكد يأسن.

فنقول من هذا المنبر نريده تجديدا مرتبطا بالأصل متصلا بالعصر، تجديدا يقدّم الإسلام منهجا هاديا للزمان والمكان والإنسان موصولا بالواقع مشروحا بلغة العصر، منفتحا على الاجتهاد والتغيير، مستلهما للماضي معايشا للحاضر مستشرفا للمستقبل، منتفعا بكل قديم صالح مرحّبا بكل جديد نافع، عاملا على تعزيز المشترك الديني والإنساني والحضاري، ملتمسا الحكمة من أي وعاء خرجت وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

ومن رأى من عيوبنا فليدّركها * وليُصلحَنها بحلم ولكن بعد التثبّت.

الفهرس

2/ استحداث إعلام يجدد الخطاب الديني ويرقى به إلى معالجة القضايا الهامة	10
3/ تخصيص دفعات من شبابنا التجاني والزج بهم نحو التكوين الديني في الجامعات الإسلامية المعتمدة	10
4/ التأكيد على مبدأ الوسطية والاعتدال كما يراه الإسلام	10
خاتمة	10